يوسف عليه السلام

يوسف بين إخوته وأبيه

تَنَفَّس الصباح، ورَفَّت الشمس بأجنحتها على الوجود، وهبَّ يوسفُ من نومه على حُلْمٍ عَذْبٍ جميل، وما جمع أشتاتَه وضمّ حواشيَه، حتى خفَّ إلى أبيه مُشْرِقَ الوجه، ضاحكَ السنّ، مُنْبَسِط الأسارير. قال: يا أبت، إني رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة، ضاءت لها جوانبُ نفسي، وانشرح لها صدري ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾[1].

فتهلّلَ وَجْهُ يعقوب وأشرقَ جبينهُ، ووضح البِشْرُ بين عينيه، وقال: يابُني، إنها رؤيا صادقة، تظاهرُ ما تَوَسَّمْتَهُ فيكَ من فضل، وما رجوتُه لك من خير؛ إنها بُشْرَى بما سيخصُّك به الله من عِلْمٍ، وما سيحبوك به من نعمة يُتِمُّها عليك، كما أتَمَّها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبلُ، ولكن لا تقصصْ رؤياك على إخوتك؛ فقد عرفت غَيْرَتهم مما أخصُّك به وأخاك من رِعَاية، وأوثركما به من إعزاز، هم اليوم حديثُهم عنكما هَمْس، وذِكْرُكما على ألسنتهم تعريض، ولو أنك حَدَّثْتهم برؤياك لا تأمن أن تُشْعِلَ حِقدهم، وتُثير كامِنَ كراهتهم، فيدبِّرُوا لك كيداً، أو ينْصِبُوا لك حبائِل[2] المكروه، وما أسرع أن يشدّ الشيطان أزْرَهم، ويشحذ في الشرِّ عزائمهم!

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً[3]، وَضِيء الطلعة، مليح الهيئة، فنَّان[4] المشاهدة، ماتت أمّه رَاحيل، وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة عشرة من عمره، أشد ما يكونان حاجةً إلى قلبها الرَّؤوم. وصَدْرِها العَطوف، ولهذا آثرهما يعقوب بالحُبّ، وخصهما بفَضْل

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٢) حبائل جمع حبالة: وهي المصيدة.

(٣) اليافع: من شارف الإحتلام وهو دون المراهق.

(٤) فَن فلانٌ: كثر تفننه في الأمور فهو فنان.

وحَنان، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذْكِيةً لهذا الحب، مضاعِفة لهذا الحنان، ولم تخْفَ على إخوة يوسف منزلتُه ومنزلةُ أخيه عند يعقوب، وإنْ تحوَّط في الكتمان، وتظاهَر بحب الجميع.

دلائـلُ العِشـقِ لا تَخْفـىَ علـى أحَـدٍ كحامِلِ المِسْكِ لا يخلو من العَبَقِ[١]

فسرى إليهم داءُ الحسد، ونبتت في صدُورهم آكِلةُ الأكباد، وهاجت الغَيْرة، وثار الحِقْد، واجتمعوا في نادٍ[٢] واحدٍ، وتشاوروا فيما يصنعون!

قال قائل منهم: ألا تروْن أن يوسفَ وأخاه أحبُّ إلى أبينا منّا، وأقربُ إليه منّا جميعاً، لستُ أدري ما الذي يحولُ بيننا وبين قلبه؟ وما الذي يُقصِّر من شَأْوِنا[٣] عنده! ألسْنا أكبرَ من يوسف وأخيه؟ ألسْنا أشدَّ منهما قوة وأكثر حُنكَةً! ألسْنا القائمين على مصالحه، الدائِبين على خِدْمته؟ فلماذا يخصُّهما دوننا بهذا الحب؟ ألِشَرفٍ يَفْضُلانِـنا به؟ لا نرى ذلك الشرف واضحاً، أم لأنَّ راحيل أمهما كانت أقربَ إلى قلبه من أمهاتنا؟ ولكن ما ذَنْبُ الأبناء إذا تَفَاضَلتِ الأمهات؟! إن هذا لحَيْف[٤] ظاهر وضلالٌ مبين.

وقال الثاني: إن محبةَ يعقوب ليوسف وأخيه قد نبتت في قَلبِهِ كما نبتت في الراحَتَيْن الأصابع؛ ولو أننا ذهبنا في سؤاله عن أسباب هذا الإيثار، ونقاشه مظاهرَ هذا التفضيل، فقلّ أن نَظْفَر بِجَدْوى، أو نَحْظَى بنصيب؛ إذ للحبِّ سُلطان على النفوس، لا يُمنع ولا يمنح، ولا يُسلَم ولا يُسلب؛ هو عاطفةٌ فوق سُلطان العقل، وميل يسترقُّ القلوب؛ وما دُمنا نرى يوسف بيننا فإنه سيظل هو وأخوه بين قلب يعقوب وشَغافه، وما أرى شفاءً لهذا الداء الذي يقتل صدُورنا، وراحةً من هذه البلابل[٥] التي تزعجنا، إلا أن نُريد ليوسف شرًّا: نقتله، ونمحو آثاره، أو نذهب به في مَفازة بعيدة، يأكله حيوان، أو تَدْفِنه رمالُ الصحراء، وحينئذٍ تقترب مسافةُ الخُلْفِ بيننا وبين أبينا أو تزول. وندنو من قلبه، ونأخذ ما حُرِمنا من حبّه، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبنا، وما إخالنا بعد ذلك إلاّ قَوْماً صالحين.

---

(١) عَبِق به الشيء: لزق، يقال: عَبِق به الطيب: لزق ولا ظهرت فيه رائحته.
(٢) النادي: مكان مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا فيه مجتمعين.
(٣) الشأو: الشوط، ويقال: إنه لبعيد الشأو: أي الهمة.
(٤) حاف عليه حيفاً: جار وظلم.
(٥) البلابل جمع بلبال: وهي شدة الهم والوسواس.

قال يهوذا ـ وكان من أسَدِّهم رأياً، وأرجحهم حلماً: نحن أبناء يعقوب الرسول وأحفاد إبراهيم الخليل، ولنا عَقْلٌ ودين، والقتلُ لا يُقرُّه العقل، ويأباه الدين؛ ويوسُفُ غلامٌ بريء، لم يَجْنِ إثماً، ولم يرتكب جُرْماً، ولم يقدِّم سوءاً، ولكنكم إذا كنتم مجمعين له إبعاداً، فهذا الجُبُّ[١] الذي ببيت المقدس، ملتقى الغادي والرائح، ألقُوه فيه، يَلتَقِطْه بعض السَّيَّارة[٢] الذين يضربون في الأرض، فيذهبوا به إلى حيث شاؤوا، وحينئذٍ نكونُ قد نلْنا ما نرجوه من إبعاد ليوسف، وخَلصْنا من إثم القَتْلِ وعَارِه.

فاستجابوا لهذا الرأي، وبيَّتُوا أمرهم على هذا العَزْمِ!

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم، والهوَى يُزَيِّنُ لهم ما يصنعون، والشيطان يحفزهم وهم يمكرون، وقالوا، يا أبانا؛ مالك لا تأمنّا على يوسف، وهو أخونا وبَضْعةٌ[٣] منا، ونحن جميعاً أبناؤك، يُظِلُّنا عطفُك، وينتظمنا حُبُّك! هَلاّ تُرْسلُه معنا غداً إلى ظاهر البَلد، حيث السماء الصافية، والشمس الضاحية[٤]، والريِّف الوَدِيع، والظل الوَرِيف؛ فبينما نحن نرعى الغنم، ونتعهَّد الأرضَ، يلعب هو ويركض، ويعود آخر النهار أصحَّ جسماً، وأصفَى نفساً؛ لئن أرسلته معنا لنرْمُقنَّه بعيوننا، ولنرفّنَّ عليه بقلوبنا، ولنفدينَّهُ بأرواحنا.

قال يعقوب ـ وقد حَذِر العاقبة، وأشفق من وقوع المكروه: إنه لمَّا يبعث هَمّي، ويُثير أحزاني؛ أن أرى يوسف بعيداً عن عَيْني وقلبي، قصِيًّا عن جناح عَطْفي وظلَّ رعايتي؛ وإني لأخشى أن تذهبوا به فيصادف الذئب منكم غَفلة، أو ينتهز فرصة؛ فيقتله ويأكله؛ وحينئذ تخلّفون لي حُزْناً طويلاً، وقلباً لهيفاً[٥]، وعَيْنا عَبْرَى[٦].

قالوا: أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا هَشيم[٧] ولا ضعيف! لئن وقع ما تحذرُ إنا إذاً لخاسرون.

---

(١) الجُبُّ: البئر الواسعة.
(٢) السيارة: المسافرين.
(٣) البَضْعَة من اللحم وغيره: القطعة، ويقال: هو بضعة مني: هو في قرابته كالجزء مني.
(٤) الضاحية: الظاهرة، يقال: فَعَله ضاحية: علانية.
(٥) اللهيف: المظلوم المُضْطَر، ورجل لهيف القلب: محترقه.
(٦) عَبَرَ فلان: جرت دمعته. وعين عبرى: باكيه.
(٧) الهشيم: الضعيف البدن.

قال يعقوب: أمَّا على أنْ تَحُوطُوه بقلوبكم، وتلحَظُوه بعيونكم؛ فدونكم وما تريدون، والله من ورائكم مُحيط.

وأصبح الصباح وصحبَهم يوسف، وأخذوا طريقهم إلى الجُبِّ، وما وصلوا إليه حتى تكشَّفت نيَّاتهم، وبرزت سَخائم[1] صدورهم، وغلُظَت أكبادهم، وقَسَت قلوبُهم: فجرّدوه من قميصه، وألقَوْه في الجُبّ حيث تلعب به الأقدار، ولم يشفعْ عندهم دَمْعٌ سَخِين ولا توسُّل وَجِيع.

وحسبوا أنهم بذلك شفوا غَيْظَ صدورهم، أو اطفئوا وقدة أحقادهم، وأنّ قَلْبَ أبيهم سَيَخْلوُ لحبّهم؛ ونفسه تخلُص لهم، وظنوا أن الأيام ستُسليه، وحبَّه لهم من بعده يلهيه، ولكنهم قدّروا والأقدار تضحك، ودَّبروا وأمْرُ الله غالب.

* * *

ورجعوا إلى أبيهم عشاء يلِّفقون القولَ، ويُزوِّرون الحديث، واصطنعوا البكاءَ ظنًّا منهم أن هذا سينهض بحجّتهم، وجاؤوا على قميصه بدَمٍ كذبٍ، حُسباناً منهم أنه يقوم برهاناً على صِدْق دَعواهم.

وقالوا: يا أبانا؛ وَقعَ ما كنْتَ تَحذَرهُ، وحلّ ما كنت تخشاه؛ لقد تركنا يوسف عند مَتَاعِنا، وذهبنا نجري متسابقين، وما ظننّا أن الذئب يقصد يوسف ويترقّب به الأذى، ولكنه وجده وَحِيداً؛ فهجم عليه وأكله، وخلّف لنا هذا الحُزنَ الذي يكادَ يَفتِك بصدورنا، وتلك العبرات تَفيضُ بها عيوننا؛ وذلك قميصه مُضرجٌ بدَمه، وما نظنُّك تُؤْمِنُ بصِدْقِ قولنا، ولو كنَّا صادقين!

قال يعقوب ـ وقد فَطِن إلى ما كادوا، ونفذ ببصيرته إلى ما دبَّروا، وعلم أن لله شأناً في هذا الغلام هو لا بدّ بالغه: لقد سَوّلت[2] لكم أنفُسكم نُكْراً، وأملى عليكم الحسد أمراً، ولكنني سأصِبرُ صَبْراً جميلاً، حتى ينكشف أمركم، وتظهر عاقبةُ كَيْدِكم؛ والله المستعانُ على ما تَصِفون.

---

(١) سخائم جمع سخيمة: وهي الحقد والضغينة.

(٢) سَوَّل له الشر: حبَّبه إليه وسهله عليه وأغراه به.

يوسف في الجب

يوسف الآن في الجُبِّ يحتويه ظلامُه، ويشتمله سكونه! مِحْنَةٌ يُمتَحَن بها هذا الفتى الكريم؛ والله يمتحنُ المخلصين من عباده بأنواع المصائب، ويفتنهم بضروب الآلام، ليكونوا أقدرَ احتمالاً على ما يُلقى عليهم من مهمّات الأمورِ وعظيماتها.

ولم تكن مِحْنةٌ أنكَى في الداء، وأبلغ في الألم، وأبعث على الجَزَع من هذه المحنة التي ابتُلِيَ بها يوسف. وربما كانت هذه المحنةُ أخفَّ وقعاً، وأهونَ شأناً، لو أنها وقعت على رَجُل خَبَرَ أساليب الحياة، وعجم عيدان[١] الأمور، إذن لعرف كيف يحتال لنفسه، أو يتدبَّر في أمره، ولكن يوسف لا يزال فتى غَريراً لا يَريش ولا يبري[٢].

وربما كانت أخفَّ احتمالاً لو أنّ يوسف كان قد اقترف خطيئةً، أو ارتكب إثماً، إذن كان خليقاً بهذه المحنة، جديراً بهذا العذاب، ولكّنه كان مُبَرَّأً من العيب، بعيداً عن التهمة، قصيًّا عن مواطن الرَّيب، وهو بعد في زكاء الطفولة وغَرارة القُوة، وأمْرُه في رِقّة الحاشية، وخفض الجناح كان معروفاً مألوفاً.

ولو أنّ رميةَ يوسف كانت من غير إخوته، ومحنتَهُ جاءته من غير آصِرَته[٣] لاحتملها قلبُه، واتسعت لها جوانبُ صدره، ولم يتشعب فيها همُّه وأسفه، ولكنه سَهْمُ إخوته ورَميّةُ بني أبيه.

ولــو بغيــر المــاء حَلْقــي شَــرِق كنتُ كالغصان بالماء اعتِصاري[٤]

هو الآن يجولُ بعينه في نواحي الجُبّ، ويتلفّت أمامه فلا يجد إلا ماءً راكداً، يرى فيه خيالَه الكاسِف[٥]، وظلَّه الحزين، ويتلّفت فوقه فلا يَلْمح إلا ظلاماً متكاثفاً لا يميز فيه شيئاً، ما عسى كانت بَلابِلهُ؟! وما خطراتُ نفسه؟ لعله تذكَّر أباه، فأعادت إليه الذكرى ابتسامتُه التي كانت تطالعُه في الصباح، وحديثَه الذي كان يتساقط إلى أذنيه

(١) عَجَمَ عودَه: امتحنه واختبره.
(٢) فلان لا يريش ولا يبري: لا يضر ولا ينفع.
(٣) الآصرة: ما عطفك على غيرك من رحم.
(٤) اعتصر بالماء: شربه قليلاً قليلاً ليسيغ ما غصَّ من طعام.
(٥) الكاسف: يقال يومٌ كاسف: عظيم الهول شديد الشر.

في المساء، وكلفه بذاته، وتعلُّقَه بشخصه، وما حاله الآن بعده؟ وأيّ حزن يشتمل عليه؟

بل لعلّه قد راعه الظلام، وأوحشه ضيقُ المكان، فحنّ لطلعةِ الشمس، وتألُّق البدر، واشتباك النجم، وزُرْقةِ السماء، ورَوْنق الضحا، وبهجة الربيع، وانسجام الظلال.

ثم هو قد جاع، أو أنه سيجوعُ، فمن أين يسدُّ حاجتَه؟ وأنى له بالطعام الذي يحفظُ جسمه، ويطيلُ في الحياة أنفاسه؟ بلابلُ لا تحتملها ساحةُ قلبه، وهموم لا تتسع لها رقعة نفسه.

إن البلاء يُطاقُ غيرَ مضاعَفٍ فإذا تضاعف صار غيرَ مُطاق

* * *

لكن رحمةَ الله قد اقتربت منه، فهو قد امتحنه بهذه البلْوى، وهو الذي سيربط قلبه، وسيجمع ما تفرّق من نفسه، ها قد أوحى إليه: أن تجمَّل بالصبر، واعتصم بالعزاء، فإني جاعل لك من ضيقك مخرجاً، ومن همكِ فرَجاً، وإني مُظهرُك على إخوتك ولكن بعد حين، عند ذلك ذهبت همومه، ورجعت إليه نَفْسُه، وانتظر يَرقبُ أمرَ الله.

ها هو ذا يسمع من بعيد صدَى حركةٍ مُبهمةٍ، وأصوات مختلطة، لقد أرْهف سَمْعه، وودَّ لو أن كل جارحةٍ من جوارحه استحالت آذاناً.

وها هي ذي الأصوات أخذت تقتربُ رويداً رويداً، وتتضِحُ شيئاً فشيئاً، أصوات أسْفرَتْ عن وَقع أقدام، وخَفْق نِعَال، ونُباح كلاب، هي قافلة، وأمل يبتسم، وزَهْر الرجاء بدأ ينفتح، وساعة الخلاص آن أوانها.

ألقت السيَّارة عصاها بجانب الجبِّ، وهتف رئيسُ القافلة بصوتٍ سمعه يوسف، ووقع على قلبه وقوع الماء من ذي الغُلة[1] الصادي[2]: ألقْ دَلْوَك يا هذا في الجب وامتَح لنا ماء ننفع به غُلّتنا، ونسدّ حاجتنا، ونسقي دوابنا، بعد أن أجهدنا السير، وأصابنا بُعْدُ الشقّة، وأخذ منا الكَلال.

فألقى الرجل دَلْوَه، ورآهُ يوسف فتعلّق به، وما راع الرجل إلا غلامٌ متعلق بالحبل، وجهه كأنه فلقَةُ قمر، فصاح: يا بُشرَى، هذا غلام!

---

(١) الغُلَّة: شدة العطش وحرارته.

(٢) الصادي: العطشان.

فاجتمع القوم، وأخذهم الدّهش، ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر!

ولو أنهم كانوا يحملون بين جوانحهم قلوباً رحيمة، أو يحتوون نفوساً كريمة لتعرَّفوا حاله وردُّوه إلى أهله، ولكنهم بعض الأنام، يجرون على طباع البشر:

إنمـــا أنْفـــس الانيـــس سِبـــاعٌ يتفـــارَسْـــن جَهـــرَةً واغتيـــالاً

واستأنفت القافلة السير، حتى ألقت عَصاها بمصر.

وهناك عرَضوُه للبيع في سوق الرقيق، وهو الحرُّ الأبيّ، والرسول الكريم، وباعوه بَيعَ السماح[١] بثمن قليل، ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٢] خشية أن يفتضحَ أمرُهم، أو أن يُهتكَ سِرُّهم، ولو أنهم باعُوه بملْءِ الأرض ذهباً لما كان ذلك عَدْلاً لهذه النفس العظيمة، وكفاء لهذا الغلام الكريم..

اشتراه عزَيزُ مصر[٣] ووزيرها الأكبر، فتوسَّم فيه معدناً كريماً، وعِرْقاً طيباً، فقال لامرأته: هذا غلامٌ يخيّلُ إليَّ من معارفه وهدوء طبعه أنه نبيل الفِطْرة، سَرِي[٤] الأخلاق، كرِيمُ المنبت، فأكْرِمي مَثْوَاه ومَأْواه، وحاشاك أن تزْجُريه زَجْرَ الخدم، أو تضربيه ضَرْبَ العبيد، فإنني لأرجو إذا اكتمل عَودُه، ونضجت سِنُّه، أن ينفعنا، أو نتَّخذه ولداً.

وانصرف يوسفُ إلى العمل ببيت العزيز، في جِدٍّ وأمانة، ولقي فيهم أهلاً بأهل وجيراناً بجيران.

يوسف وامرأة العزيز

١ ـ لم يكد يوسف يَخلُص من مِحْنَة الجُبِّ، ويخلُدُ إلى حياة هادئة في منزل العزيز، حتى ابتدأت الأيام تخيط له محنةً أخرى، يَقوىَ بها عَزْمُه، وتقرب إلى الله بها

---

(١) بيع السماح: هو البيع بأقل من الثمن المناسب.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٠.
(٣) عزيز مصر: هو وزيرها وكان اسمه قطفير وكان على خزائن مصر وكان الملك يؤمئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق.
(٤) سري: شريف.

نفْسُه، والأقدارُ قد جاءته في محنته هذه من ناحية حُسنه وجماله، ودخلت إليه من طريقِ فُتوّته وغضَارة شبَابه، فشقِي بهذا الحسن زمناً، وجرّ عليه بلاءً طويلاً.

وكم رَمَتْ قسَمات الحُسْنِ صاحِبها ... وأتْعَبت قصَبَاتُ السبقِ حَاويها
وزهرَةُ الرَّوْض لولا حُسنْ رونَقها ... لَمَا استطالت عليها كَفُّ جانِيها

ابتدأ يوسف في عمله، وهيَّأت له الملابسات إظهار مكْنُون حَزْمِه وعقله، وأمانته ونزاهته؛ فازدادت به ثِقَةُ العزيز، وأدخله فيما بينَ نَفْسه وأهله، وبَوَّأه مكان الأشرافِ الأحرار، ووَضَعه من قَلْبِه موضعَ الأبناء الأبرار.

وتقدمت به الأيامُ، وأظلهُ ربيعُ العمر، وخلع قميص الحداثة، ولبس بُرْدَ الشباب، وإذا امرأةُ العزيز يشغلها أمْرُ هذا الغلام؛ فأخذت ترقبه في غدوّه ورواحه، وتلحظه في قيامه وقعوده، وفي يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكُونه، وبدت لها محاسِنُه الخفِيَّة، وحيويته القوية، وشعرت أن حُبَّهُ ينبت في قلبها، وينبض في عُرُوقها، ويجري مع أنفاسها؛ فوسوست به في خَلوتها وتمنّته ـ وللحِسان تمَنٍّ في لياليها ـ ولكن كيف السبيلُ إليه، وهي امرأة العزيز، ومقامها في القصر مقامه، ومكانة زوجها في مصر مكانتها! لخيرٌ لها أن تغلِبَ ميلها، وتسحق هواها، وتصرف نَوَازِي الهوى عن نفسها. ولكنها كلما رأته مال إليه قلبُهَا وبُعث الحبُّ قويًّا في صدرها.

وأشدُّ ما لُقِّيتُ من ألَمِ الجوَى ... قَرْبُ الحبيب وما إليه وصولُ
كالعِيس[1] في البيْداء يقتلها الظَّمَا ... والماءُ فوْقَ ظهورها محمولُ

ولما ضاق صَدْرُها، وَدنِف جِسْمُها، رأت أن تجيب داعيَ الهوى، وتجاذبه ثَوْبَ الغرام، ولكنْ على ألا تُذِلَّ نفسها، أو تهبط عن عَرْشها؛ فنصبت له حبائِلَ الفتْنَة، وأطلعَتْهُ من نفسها على ما عساه أن يصبىَ نفسه، ويثير داعيةَ هواه.

لكنه أعرض عن تَلويحها وتلميحها، وغضَّ بَصَرَهُ عن محاسنها وروْنَق جمالها، وما كان ليوسف ـ وهو الكَريمُ ابن الكَريم ابن الكَريم ـ أن يميلَ قلبُه إلى محرَّم، أو تَجْنَح به نفسه إلى معصية. وما كان له أيضاً ـ وقد مهَّد له العزيزُ من كَنَفه، وبسط

(١) العيس جمع أعيس وهو الذي يخالط بياضه شقرة.

له مِهاد صدره، وائْتمنه على أهله ـ أن يخْتَانَهُ في منزله، أو يسوءَهُ في امرأته.

ولكن الإعْراض ضاعف هواها، والمنع أثار كامِن غرامها؛ فرأت أن تَصِل بالتصريح إلى ما لم تَنَلْه بالتلويح، وأن تكون أجْرأ على ما تطلبُ، وأشجع فيما تريد؛ فما بقي في قَوْس الصبر منزع، وما عادت بعد اليوم تُطِيقُ صدَّهُ وإعْراضه، وأجمعت الرَّأي، وهيّأت نفسها لما تريد، بعد أنْ ألْقَت صوْلجان الملك. ولبِست شِعَار المتصبِّية العاشقة. ودعتْهُ لمَخْدعها فَلبَّى سريعاً. استجابةً لأمرها. وجَرْياً على عادته في طاعتها، ثم أسدلت السُّجُف[1] وغلَّقت الأبواب، وقالت: هَيْتَ[2] لك!

ولكنَّ يوسف، وإن كان في ريعان الشباب، وغَضَاضة الإهاب، وفراغ البال، وَحُسْنِ الحال، قد ارتضع لبان الحكمة، وترعرع في كَنَفِ الرِّسالة، وأعدَّهُ الله لشرف النبُوَّة، و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[3]؛ فقلْبُهُ مشغول بربِّهِ، ليس فيه موْضِعٌ تَسْتميله المرأة، أو تستهويه نزَوَاتُ الهوى.

أجابها: معاذ الله أن أجيبَكِ إلى ما تُريدين، أو أُذْعِن إلى ما تطلبين، وحاشاي أنْ أخُونَ مولاي العزيز، وهو الذي أحسن مَثْواي، وأكرم مأواي، وما أنَا بمنكِر للنِّعْمَة، ولا بجاحِدٍ للجميل.

إن كُنْتِ قد غلَّقْتِ الأبواب، وأسدلت الحجُب فإنّ الله يَعلم خائنة الأعينِ وما تُخْفِي الصُّدور! وحاشاي أن تُطَاوِعني نفسي لمعصيته، أو أن يستجيبَ قلبي إلى ما فيه غَضَبُه، إنهُ لا يفلح الظالمون!

امرأةُ العزيز في سَطْوَتِهَا وعِزَّتِهَا، وجمالها ودَلَالها، تدعو فَتًى من فتيانها، بل واحداً من خدامها؛ فيأبى ويمتنع، ويستكْبر ويعتصم، وهي الآمِرَةُ النَّاهية في قَصْرِها، والسيدةُ المطاعةُ في خدَمها وحشَمها! إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها، وكبيرة لا تُسيغُها نفسها!

استطار غَضَبها، وهاج هائِجُهَا؛ فهمَّت به بَطْشاً، وأرادت به سُوءاً، انتقاماً لعزّتها المُضاعة؛ فهمَّ أن يلقى الشرّ بالشرّ، ويصدَّ الضرب بالضرب، ولكنه أحسَّ بإشراقِ النبوة

(١) السجف جمع سجاف: وهو الستر.
(٢) هيت لك: أي هلم.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

في نفسه، ورأى برهان الله في قلبه، وأوحى إليه: إن الفرار خَيْرٌ من القتال، والمسالمة خيرٌ من المواثبة؛ فاستجاب لوحيّ ربه، وهَمَّ إلى الباب جَرْياً، وهَمْتْ وراءَه عَدْواً، حتى أمسكَتْهُ منْ قميصه، وجذبته من ثوبه، وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً!

كان موقفاً يبعثُ على الرِّيبة، ويُثير الاتهام، رجعت فيه المرأة إلى كَيْدِها ومكْرِها، والتجأ يوسفُ إلى صدقه وصراحته... قالت: إن يوسف لم يَرْعَ حُرْمتك، ولم يحفظ يَدك؛ فإنه حاول أن يُدنِّس ثوبي، فرَاوَدني عن نفسي، ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[1].

فلم يجد يوسفُ ملجأً إلا الصراحة في القول، والاعتراف بالواقع؛ إذ كانت جريئة في الكَذب، جريئة في البهتان، فقال: هي التي راوَدَتَني عن نفسي، وجذبتني ثَوْبي العفيف، وهذا قميصي شاهداً على صدق دعواي.

وفيما هو في أمره معهما دخل ابنُ عمها، وكان فَطناً لبيباً، زَكِناً[2] أريباً[3]؛ فسمع القضيةَ من أطرافها، وفطن لما وراء قِصَّتها، فقال: إنْ كان قميصه قُدَّ[4] من قُبلٍ[5] فصدقتْ وهو من الكاذبين، وإن كان قميصُه قدّ من دُبُرٍ[6] فكذبتْ وهو من الصَّادِقين.

فلما رأى قميصه قُدَّ من دبُر، جلت الرَّغْوَة عن الصريح[7]، ووضح الحقُّ لذي عَيْنَيْنِ، وظهرت براءةُ يوسف، والتفت العزيزُ إلى امرأته وقال: إن هذا من كيد النساء ومكرهنَّ؛ فاستغفري لذنبك إنك كُنْت من الخاطئين، وأنتَ يا يوسف، اربطْ لسانك عن الخوْضِ في الحديث، خشيةَ أنْ تشيع القَالةُ، وينتشر الحديثُ بين الناس.

٢ ـ وشاع في المدينة وعلى ألسنة النِّسوة، وبين جنباتِ القُصُور، أنَّ امرأةَ العزيز قد

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٥.
(٢) الزكن: من يصدق في فراسته وحدسه.
(٣) الأرب: الدهاء والفطنة والبصر بالأمور.
(٤) قَدَّ: شَقَّ.
(٥) قُبُل: قدام.
(٦) دُبُر: خلف.
(٧) الصريح: الخالص مما يشوبه.

افتتنت بغلامها العبراني، ووقعت في غرامه، واستهامت بجماله، وأنها لما امتُحِنَت به من حُبِّه، واصطلت بنار عِشْقه، قد نزلت عن عرشها، ودعتْهُ لنفسها؛ وسدَّدت إليه سهام فتنتها وسحرها، ولكنَّهُ عزف[١] عنها، وزهد فيها، ولم يفتنه حُسْنها ولا دلالها. ولم يستهوه روعتُها ولا جمالها؛ فهي لهذا مسلوبة الفؤاد مضرَّمة الأنفاس، تخفي أمرها فيفضحها الدمع، وتستر وَجْدها فينمُّ عليه السَّقَم.

وأخذت تلك القالة تَشِيع وتتشعّب، وتتخذُ لها ألواناً وأشكالاً. حتى انتهت إلى امرأة العزيز. وسقط في سَمْعها كلُّ ما تحدث به لِدَاتُها وأترابها[٢] من نسوة المدينة، وما تَزَيَّدْن فيه، وما نِلْنَهُ منها بحصائد ألسنتهنَّ وقارس تأنيبهن؛ فلم تر بُدًّا أن تدحض هذا القول، وتفلّ ذلك السلاح، وتقابل مَكرهنّ بمكر، وكيدهن بكيد.

فدعتهن في يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها، وهيَّأت لهن مُتكآتٍ وَثيرة، وأرائك مُريحةً، وخلعت عليهن أرديةَ الحفاوة، وحاطتهن بهالة من النعيم، وقدمت لهنَّ الفاكهةَ، وآتتْ كلَّ واحدة مِنْهُنَّ سكِّيناً، وقالت ليوسف: اخْرُجْ عليهن، وامْشِ بين صفوفهن؛ فخرج من مَخْدعه وقد صبغ الحياءُ وجهه، وملأه الحسن من أخْمصه إلى مَفْرَقه[٣]؛ فشاهدْن فتىً لا كالفتيان، وشابًّا لا كالشبان، أبلجَ[٤] الغُرَّة، وضيء الطلعة، سَمْح المعارف، حُلْو الملامح، ملء أردانه قوة وشباب، وحشو دِرْعه مهابة وجلال؛ وشاهدن من وراء هذه القَسَامة نفساً جميلة كريمةً؛ فذُهِلن عما كُنَّ فيه، وخُولطنّ في عقولهنّ، فإذا السكاكين تَقَعُ على أيديهنّ فتقطعها، فقلن: حاشَ لله وتبارك خَلْقُهُ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[٥].

فَصَفَّقت امرأةُ العزيز بيديها، وكأنه قد سُرِّي عنها، وقالت: هذا يوسف الذي لُمْتنني فيه، وخُضْتُنَّ في حديثي معه، وهذا شأنكُنّ فيه، وقد رأيتُنَّهُ عَفْواً، وشاهدتُنَّهُ لمحاً، فما بالكُنّ تلمنني فيه، وقد ترعرع في داري، وبلغ أشدَّه أمامي، واستوى بين سَمْعي وبصري،

(١) عزف عنها: انصرف عنها وزهد فيها.
(٢) أتراب جمع ترب: وهو المماثل في السن.
(٣) المَفْرِق من الرأس: حيث يفرق الرأس.
(٤) بلج وجهه بلجاً: تنضر سروراً. وهنا أبلج العزة: نضير الطلعة.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣١.

فأنا أشاهِدُه في قعوده وقيامه، ويقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وأخْلُو به في ليلي ونهاري، وأتراءى له في زينتي، وأعرض على نظره ما ظهر من محاسني؛ فيُعرض عني استعصاماً، ولا يرفع إليّ طرْفاً، ولا يُميل نحوي عطفاً، بل يتجلّى فيه الروح الملائكيّ بأظهر مَجَاليه، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها.

أمِثْل هذا الملَك القاهر يُسَمَّى عَبْداً طائعاً! ومثل هذه المرأة المقهورة تُسَمَّى سيدةً مالكة! تأمر ـ بل تُشِير ـ فتُطَاع، ثم ينكرْ عليها أن تراوِد فتردّ، وتريد إظهار سلطانها فتعجز!

لا أُخفي عليكُنَّ أنني قد رَاوَدْتُه عن نفسه، وَجَذَبْته من قلبه، فتأبّى وَاسْتَعْصم، وانصرف عنّي وأعرض، ولا أُخفي عليكُنّ أيضاً أنني سوف لا أطيق على إعراضه صَبْراً، ولا أستطيعُ أن أملك لقلبي معه زماماً. فهو قد ملك أعِنَّة قلبي، واسترقّ فؤادي، وأطال ليلي، وسلب الكَرَى[١] من أجْفَاني. ولكنني ـ وقد أذْللتُ نفسي، وافتضح أمام الناس أمري ـ لئن لم يفعلْ ما آمُرُه لأدفعنّ به إلى غيَابات[٢] السجن، يُعَاني ظلامه، وَيُبْلي فيه رداء شبابه، أو لأذيقَنّه هوان نفسه، وإيذاء جسمه؛ فهما أمران يختار أهونهما عليه.

رأى النسوةُ ما رأينَ منْ جمال يوسف وروعته ورَوْنقه وتألُّق غُرَّته. ثم رأينَ ما رأينَ من حُرْقَةِ امرأة العزيز، وصَبْوَتها وتمنّيها في عزّها وجاهِها، وفي سطوتها وسلطانها. ثم سَمِعْنَ ما سَمِعْنَ من تهديدها ووعيدها؛ فتألَبن[٣] معها عليه، وتقرّبن إليه. قالت له إحداهنَّ: أيها الفتى الكريم، ما هذا التأبّي والتمنُّع؟ ولمَ هذا الانصراف وَالازْورَار[٤]! أليس لك قلب يَلين لهذه التي أسلمت نفسها، ودفعَت إليك بقلبها! أليس لك عَيْنٌ تنظر إلى من تُقَيِّد الطَّرْفَ بحسنها، وتستميل العَصِيّ بجمالها! ألستَ شابًّا مكْتَمِلَ الشباب، غَضِيضَ الإهاب، لك في المرأةِ نَصِيب، ومن المتعة بها مقدار؟

وقالت الأخرى: وَدَعْكَ من جمالها وغَرامها، ألستَ تنظر إلى مالها وسلطانها،

---

(١) الكرى: النوم.
(٢) غيابات جمع غيابه: وهي كل ما غَيَّب شيئاً.
(٣) ألَّب القوم: جمعهم.
(٤) الازورار: الميل والانحراف.

وعزّها وجاهها؟! ألم تعلم أن كلَّ ما في هذا القصر مبذول لك لو أطَعْتَهَا، مُيَسَّر لك لو أجَبْتَها؟!

وقالت الثالثة: إن لم يكُن لك مَـأْرَبٌ في جمالها، أو مطمعٌ في مالها، ألستَ تخشى ما تَوَعَّدَتك به من سجنٍ لا تعلم مَدَاه، أو عذاب لا تُدْرِك غايتَه أو مُـنتهاه؟! لخيرٌ لك أن تَسْلِس من قيادِك، وأن تخفّفَ من عِنَادك، فتفوز بالحسنيين: الجمالِ والمال، وتأمن من شَرَّين: السجن والعذاب.

قلنَ ذلك، وَحَسِبْنَ أنهنّ بالغاتٌ بكلامهنّ قَـرَارَةَ نفسه، أو محركات مكان الهوى من فؤاده، ولكن يوسف اضطراب بين الوعْدِ والوعِيد، وبين المنْع والإغراء، حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر، ويُـوَسوس إليه الشيطان؛ فتوسَّل إلى الله ـ والمؤمِنُ لا يزال يفزعَ[1] إلى الله في كلّ ما يَحزُّ به من هَمّ، أو يصيبه من مكْرُوه، أو يشتبه عليه من أمر، فيلتمس منه العَوْنَ والسَّدَاد.

وكذلك كان يوسف؛ فإنه توجّه إلى الله، وتضرّع إليه أن يصرفَ عنه السُّوءَ، ويصُدَّ عنه كَيد النساء، وقال: رب، إنَّ السجنَ على ظلامِه ووَحْشَته أرْوَحُ على نفسي، وأمْـيَل إلى قلبي من مجاهدة هؤلاء النِّسْوة ومغالبتهنّ؛ فيه أصبِر على بلاَئِك، وأزيد إيماناً بقضائك، وأعلم ما خفيَ عليّ من شؤون خلقك، وقد يَفتح لي بابَ الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك، وَتُـهيّأ لي الفرصةُ لعبادتك وتمجيدك، وفيه أعدّ نفسي لإقامة الحق، وَنَصْبِ ميزان العدل، فيما عسى أن تخوّلني من الأمر، كما وعدتَ أن تمكّن لي في الأرض، ووَعْدُك الحق وقولُك الصدق، أمَّا أن أقيمَ بين هؤلاء النسوة، يَفْتِنُّني بالقول، ويُزَخْرِفْنَ لي باطلَ الحياة، فإنني لأخشى من هَوَايَ أن يميل، ومن الشيطان أن يُوَسْوِس فيتغلّب، فأصبو[2] إليهن ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

وكلّ تلك المحن التي ابْتُلِيَ بها يوسف، وَالحَبَائل التي نُصِبَتْ له، والأقاويل التي

(١) فـزِعَ إليه: لجأ واستغاث.
(٢) أصْبُوْ: أميل.
(٣) سورة: يوسف، الآية ٣٣.

نُسِجتْ حوله، خرج منها عفيفَ النفس، طاهرَ الذيل؛ فقد افتنَّت سيِّدته في مُرَاوَدَته، ولكن لم يكُن لذلك أدنى أثر في جَذْب خلسات نظره، ولا خَفَقَات قلبه، بل ظَلَّ مُعْرِضاً عنها، متجاهلاً لها، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعرَّ جِلْدُه، واستعاذ بربه، وَأَنِفَ أن يخونَ سيِّده، واتهمتْه بالاعتداء عليها؛ فشهد شاهدٌ من أهلها بما أسقط حجَّتها، وأوْهَى كلامها، واجتمع حوله النِّسْوة يفتنه، فما نقضْنَ له مِرَّة[1]، ولا حَوّلن له قلباً.

ظهرت هذه العلاماتُ دالة على براءته، شاهدةً على نزاهته وأمانته، وعلمها العزيز، واستيقنتها نفسه، ولكن امرأته ـ وقد عِيلَ[2] صبرها، وانقطع من يوسف رجاؤها ـ فزعَتْ إليه، وكان مِطْوَاعاً لها، وجملاً ذَلُولاً في يدها، وقالت له: إن يوسف قد فضحني في أمري، وافترى عليَّ الزُّورَ في شَرَفي، وما أرى إلا أن تسجِنَهُ، فتأخذ لشرفي، وَتَشْفِي من غيظي.

فانقاد لقولها، وأطاع أمرها، ودفع بيوسف إلى السجن، بريئاً من ذَنْبه، كما كان الذئبُ بريئاً مِنْ دَمِه؛ فاستقبل فيه محنةً جديدة، تَلقّاها بقلب الصابرين، وَعَزْم المؤمنين.

* * *

يوسف السجين

دخل يوسف السجْن ـ لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً، أو لصّ سرق متاعاً ـ بل دخول مظلوم لم تُنْصِفْه كلمةُ القضاء؛ فأسلم نفسه يرجو عَدْلَ السماء؛ دخله مُرْتَاحَ الضمير، رَضِيَّ النفس، منقوعَ الفؤاد، وما السجنُ وظلامُه، والأسْرُ وأغلاله، في جانب هذه الفتنة التي أثيرت حَوْلَه، والمؤامرة التي دُبِّرَت للإيقاع به؟! ألم يكُن السجنُ نجاةً له من هذه الفتنة التي قصِدَ بها ثَلْمُ دِينه، والمؤامرة التي دُبِّرَتْ لوَكْس[3] خُلُقه، وإفساد عصمته! وما ضَرَّ يوسف أن يُسْجنَ أو يمنع من الغدوّ والرّوَاح؟ أليس هو واجداً في السجن قوماً جُفَاةً[4] ظالمين، أو عُتَاة مجرمين؟! لخيرٌ له أن يقومَ بينهم معَلماً راشداً وناصحاً

(١) المِرَّة: العقل والأصالة والإحكام، يقال: إنه لذو مِرَّة: عقل وأصالة وإحكام.
(٢) عَيل صبرها: نفد.
(٣) وكَسَ الشيء: نقصه.
(٤) جفاة: غليظو الخلق.

أميناً؛ فلعله يَخْضِد[١] من شَوْكَةِ الظلم فيهم، أو ينزع نَوَازِي الشرّ من صدورهم، فيكُون قد طهَّرَ الإنسانيةَ من بعض أدْرَانها[٢]، وخفّفَ عن كاهلها، ما تنوءُ به منْ عِبْءِ مجرميها.

ألا يجد فيه قوْماً مظلومين، وأغْفَالاً[٣] مساكين؟! إنها فرصةَ طيِّبة، وسانحةٌ جميلة، ليواسيَهُمْ في آلامهم، ويشارِكهم في محنتهم، فيكُون ذلك أروحَ لنفسه الرضيَّة، وأنسبَ لطبعه الكَريم، والله قد وعده النبوَّة، ومَنَّاه بالرسالة. وأيُّ شرف يَعْلُو هذه المنزلة؟! وأيُّ عزٍّ يطاول هذا المقدار؟! فما يبالي بعد ذلك السجنَ والعذاب، وَالقَيْد والأغْلال!

* * *

وامتَـدَّت أيامُ سِجْنه، ومكَث فيه دَهْراً، يَعُودُ المرضى وَيُـواسي الضعفاء، وينصح الأشقياءُ، وينشر عليهم مع كلِّ صُبْح فيضاً من علمه، وقبساً من فضله، حتى أحَبَّهُ المسجونون، وكلِفُوا به، واطمأنت نفوسُهم إليه.

ودخلَ فيمن دخل معه السجنَ فتَيَان من حاشية الملك: ساقِيه، وخازِن طعامه؛ ذَاقَا معه آلامَ السجن، واحتملا ذُلَّ الأسْرِ وَالقيْد، حتى أصبحا يوماً على رؤيا أهَمَّتْهُما، وأزعجَتْ طائرَ الاطمئنان في صَدْرِهما؛ فأسرعا إلى يوسف يستْنبِئَانه عن رؤيتهما، وَيَسْتَفْتِيَانِه في أمرهما.

قال الساقي: لقد رأيتُ كأني في بستان كَرْم مَعروش[٤]، زَاهٍ مُخضرّ، وكأنّ بيدي كأسَ المَلِك، أعْصِرُ من عناقيده فيها.

وقال الخازن: وأما أنَا فقد رأيتُ كأني أحمل سلالاً فيها أصنافُ الخبز والطعام، وكأنّ سِرْباً من الطير يَتهاوى إليها ويتخطَّفها، ويذهب بها إلى مكان سحيق؛ فهل لك أن تنبئنا بتأويل ما رأينا، بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير؟!

* * *

---

(١) خضد الشوك: نزعه من شجره.
(٢) أدرانها: أوساخها.
(٣) أغفال جمع غُفْل: وهو من لا يرجى خيره ولا يخشى شره.
(٤) عرش الكرم عروشاً: رفع أغصانه على الخشب.

وكان يوسف ـ قبل أن يَلْجَأ إليه الفَتَيان ـ قد أكرمه الله برسالته، وآتاه ما وعده، وأمره أن يضطلعَ بما اضطلع به أبوه من قبل، من الدعوة إلى التوحيد، وإشعال قَبَس الإيمان، وعسِيٌّ به أن تكُون دعوته مؤكَّدةَ النجاح، مقرونةً بالفلاح؛ فهو في قوم فقراء قد طهَّرَ نفوسهم الفقر، ومظلومين يستشرفون إلى الإيمان، وهؤلاء وأولئك أقربُ الناس لِفَهْم الدعوى، وأكثرُهم استعداداً لما يُلْقَى عليهم مِن هَدْى وإرشاد.

وبينا هو يتهيَّأ للدعوة، ويُعدّ نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفَتَيان، ورآها يوسف فرصةً يمهِّدُ بها للدعوة، فقال: يا قوم، إنَّ وراءَ هذه الأصنام التي تعبدونها، والآلهةِ التي تتقرّبون إليها، إلهاً قد أوحى إليّ أن أدلكم عليه، وأرشدكم إليه، وأن ما تعبدونه من رَعْ أو أبيس[1]، أو تمثال أو صنم، ليست إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطان. ولا يحملكُم على عبادتها دليل أو برهان، وإن التمسْتُمْ دليلاً على صِدْقي، أو أردتم برهاناً على صحة دعوتي، فدونكُم تأويلُ رُؤيا الفَتَيَيْن: أما أحدُهما فسيخرجُ من سجنه، ويعودُ إلى سابقِ عهده، ساقياً للملك، قائماً بينه وبين نُدَمائه... وأما الآخر فسيُصْلَبُ وستأكلُ الطيرُ من رأسه، عرفْتُ هذا عن وَحْي غَيْب، لا بكهانة أو تنجيم أو ما يشبههما من صناعة أو تعليم، ذلك مما عَلَّمني رَبِّي، إني تركتُ مِلةَ قومٍ لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون.

ويوسفُ كان عالماً بِصِدْقِ تأويله، وبوقوع نُبوءته، فقال للساقي ـ وقد عَلم نجاته، وتوقّعَ صدورَ العَفْو عنه: يا هذا، إذا ما فارقتَ سجنك، ورجعت في قصر الملك إلى مكانك، فاذكر له أنَّ مظلوماً يحويه السجن، ومتهماً بغير جَرِيرة[2] يُعَانِي الأسْرَ والأغلال.

وصحّ تأويلُ يوسفُ، ونجا رجلٌ وصُلِب آخر وما ابتدأ الساقي يعود إلى مليكه، حتى اضطرب فيما يضطربُ فيه الناس، وأنساهُ الشيطان أن يذكر يوسف لربه، فلبث في السجن بضعَ سنين.

* * *

(١) رع: علم على الشمس. أبيس: عجل ذو صفات خاصة جعله المصريون القدماء رمزاً للقوة الحيوانية وقدسوه.

(٢) الجريرة: الذنب والجناية.

خروج يوسف من السجن

أصبحَ الملكُ على رؤيا أهمَّتْهُ وأفْزَعَتْهُ، فدعا إليه علماء دولته، وأشرافَ قومه، وقصَّ عليهم ما رَأى.

قال: إني أرى سبعَ بقراتٍ سِمَانٍ، يَأكلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ[١] مهازيل، وسبع سُنْبُلات خضْرٍ، وأخرَ يابسات. ثم طلب إليهم تعبير هذه الرؤيا وتفسير ذلك الحلم، فكلهم عجز عن التأويل، وَعَيَّ عن التفسير، وقالوا: خيالاتٌ وأوهام، وأضغاث[٢] أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعَالِمين!

ولكن هذه الرؤيا ذكَّرَت ناسياً، ونبَّهت لاهياً، وأثارت عندهُ ذكريات بعيدة، وأياماً في تاريخه ماضية، فساقي الملك ما كاد يسمعُ هذه الرؤيا، ويحسّ رغبةَ الملك في التأويل، حتى تذكر يوسف السجين، وذلك الذي أوّل له الرؤيا فصدق في التأويل وهو الآن يمرحُ في أبْرَاد[٣] النعمة، ويتقلّبُ في أعطاف النعيم، حتى تذكَّر.

قال: أيها الملك؛ إنَّ بالسجن فتىً كريماً، صائبَ الفكر، مُلْهَم الرأي، يكشف ودائعَ الغيوب بنور عَقله، ويصيب شاكِلة[٤] الصواب بثاقب تدبيره، تُعْرَض عليه الرؤيا فيخمِّرها ويُجيلها، ويجيدُ الفكرةَ فيها ويُطِيلها ثم يخرج بعد ذلك بالرأي الوثيق، والتأويل الصادق، ولو أرسلتني إليه لجئتك بالخبر اليقين.

وانطلق الساقي إلى يوسف في سجنه، ومهْبط آلامه، فوجده كما تركه صابراً محتسباً، مؤمناً قانتاً، قال له: يوسف، أيها الصِّدِّيق جئتك فيما أرجو أن يكون لك فيه فرجٌ من ضِيقك، وعافيةٌ من محنتك، أفْتِنَا في سَبْع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجافٌ مهازيل، وسبع سنبلات خُضْر وأُخرُ يابسات، فلعلك بعلمك تَرْوي نفوساً للتأويل ظامئة، وتجيب على أسئلة في الصدور مختلجة، ثم أرجو أن يعرف بعدها القوم فَضْلَك الواسع، وعلمك الفيَّاض.

---

(١) عجاف جمع عجفاء: وهي الهزيلة، عجف: هزل.
(٢) أضغاث: أخلاط. أضغاث أحلام: ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله.
(٣) أبراد جمع بُرْد: كساء مخطط يُلتحف به.
(٤) الشاكلة: الخاصرة والمراد أنه يصيب ويقع في عين الصواب.

ويوسف عليه السلام لم يكن عالماً يؤوِّل الرؤيا فحسب، بل كان رسولاً مصلحاً أرسله الله هادياً للناس في دنياهم وآخرتهم، ومَعاشهم ومَعادهم، فما كان يرى فرصَةً يتنفَّسُ فيها برسالته إلاَّ انتهزها، ولا نُهزةً[١] صالحة للدعوة إلاَّ عَلِق بها.

فمن سنين مضت سأله الفَتيَان عن رُؤياهما، فوجدها فرصة لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزىء بها.. واليوم يسألهُ الملكُ عن رؤياهُ فيعرف التأويل، فلا يقصر حديثه عليه، بل يمزجُ بالتأويل رأيَهُ، ويُسْدي إلى الشعب نُصْحَه.

قال: إنكم تستقبلون سبْعَ سنوات ليِّنَة رُخاء، تكونون في أخصب تربة وَأمْرع[٢] جناب، تزدهِرُ حقولكم، وتزكُو غلاتكم، ويَصْفو لكم العيش، وتطيب الحياة، ثم تَأتي في أعقابها سَبْعٌ شِدَاد يُظلكم فيها الأمل، وتكشفُ لكم الأيامُ عن سَحَاب خُلَّب[٣]، وَوَمِيضٌ[٤] خادع، يَنْكِصُ النيل فلا يفي بوعده، ولا يُمِدُّكم برفْدِه، ويتجهَّمُ وَجْهُ الأرض، فلا تبثُّكم مكْنونَ خيرها ثم لا تجدون قائماً يُحْصد، ولاَ حصيداً يُخْزَن، وتُصَابون من دهركم بالداهية الجُلْى، والنائبة العظمى.

ثم بعد ذلك تُصَالِحكُم الأيامُ، ويُقْبِل عليكم الزمان، وتتهلّل وجوه النُّجْح وتنحلّ عقَدالأمور، ويُظلُّكم عام خصيب، تُغَاثون فيه من شدتكم، وتصلِحُون ما فسد من أموركم، تجودُكم الأرض بالحنطة والشعير فتأكلونَ، والقُرْطُم[٥] والزيتون والسمسم فتعصرون وتأتَدِمُون، ذلك تأويل الرؤيا، وذلك ما أشرقت به نفسي، وما تلقَّيْتُهُ بالوَحْي عن رَبِّي.

وإذا كان ما أخبرتُ واقعاً لا مَحَالة، فما حصدتم في سِنِيكم الرَّخاء فاخزنُوهُ في أُهْرَائكم[٦] ودُوركُم، مَصوناً في سُنْبله، حتى يظلَّ سليماً نقيًّا، إلا ما تحتاجون

---

(١) النُّهْزَة: الفرصة.
(٢) أمْرَع المكان: أخصب بكثرة الكلأ.
(٣) الخُلَّب: السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره ثم يُخلف ويتقشع.
(٤) ومض البرق وميضاً: لمع خفيفاً وظهر.
(٥) القرطم: نبات زراعي صيفيّ من الفصيلة المركبة ويستعمل زهره تابلاً وملوناً للطعام.
(٦) الأهراء جمع هُرْيٌ: وهو البيت الكبير الضخم الذي يجمع فيه الطعام للسلطان.

إليهم ما يقيم أوَدَكم،[١] ويحفظ حياتكم، لِتَتَّقوا السبعَ الشِّدَادَ، والسنين العِجَاف.

ولما وصل إلى الملك هذا التفسير، وفطِنَ لذلك النُّصْح والتدبير، أدرك أن وراء هذا عَقْلاً حَصيفاً[٢]، وفكْراً مُلهماً، فدعاه إليه ليسبرَ غَوْرَه، ويُدْرِكَ به شَاوَه ويُفيد من رأيه وعلمه.

حضر إليه الرَّسولُ وناداهُ: يا يوسف، إن الملكَ يدعوك إلى حضرته، ويطلبك إلى مجلسه؛ فقد شامَ من تعبيرك عِلْماً غزيراً، ولمح من نُصْحِك رأياً حَصِيفاً، وإنه ليُوشِكُ أن يرتفعَ مقدارُك، ويطلع نهارك.

ولكن يوسف كان رسولاً كريماً، وعلمه ربُّه كيف يكون صبوراً حليماً، فما استجاب للكلمة الأولى ـ وهو أحوجُ ما يكُون إلى الانطلاق من الأسر ومفارقة السجن؛ فقد طال عهده بوحشتهِ وظلامِه، وأحزانه وآلامه، وقد مرت عليه سنواتٌ مجرَّمات[٣]، لم يَرَ الشمسَ الطالعة، ولا البدور المتألِّقة، ولا النجوم المشتبكة، ولا الزروعَ الناضرة، ولا الحقول المُسْرِعة[٤]، بل لعله أمضى أيام سَجْنِه لم يذق إلاَّ طعاماً يابساً، وخبزاً قَفَاراً[٥]، وماء كدِراً رَنْقاً[٦]، ولعلّ رجليه لم تُحْرَم يوماً من قَيْد غليظ، ويديه لم تَسْلم من غُلّ ثقيل، ولعله أيضاً آذته ليال افترش فيها المَدَر[٧]، وتوسَّد الحجرَ، ونام على الألم، وهو مع تلك الآلام التي شاهد، والمصائب التي لاقى، لم يكُن إلاّ مظلوماً مغلوباً على أمره، يَلْقى العذاب ثمناً لما أدَّرَع به من عصمة وإيمان، ونزاهة وطهارة سِرْبال[٨].

فما أحَبَّ أن يخرجَ من سجنه مَمنْوناً عليه بعفو، أو مُتَفَضَّلا عليه بشيء، بل قال

---

(١) أودَ: أعوج، يقال: أقام أوده: قَوَّم إعوجاجه.
(٢) حَصُفَ الشيء: كان محكماً لا خلل فيه يقال: حَصُفَ فلانٌ: استحكم عقله وجاد رأيه فهو حصيف.
(٣) جَرَّمَ السنة: أتمها، مجرَّمات: تامات.
(٤) مَرَع المكان: أخصب بكثرة الكلأ.
(٥) القفار من الخبز: غير المأدوم.
(٦) أرْنَقَ الماء: كدَّره، الرَّنق: الماء الكدر.
(٧) المدر: الطين اللزج المتماسك.
(٨) السربال: الدرع أو كل ما يلبس.

للرسول: ارجع إلى الملك وَسَله أن يتعرَّف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنّ، وأُخِذْتُ ظلماً بجَرِيرتهن، ليَظهرَ أمري قبل أن أغادِر السجن، وتُعْرف قضيتي قبل أن يُفْصَل فيها بالعفو.

فأهمَّ الملك أمرَ يوسف، وشغل بالَه ذكرُ النسوة، وتشعَّبَتْ أمامه وجوهُ القضيَّة؛ فما كان يظنُّ الأمر يعدُو أن يكون ذلك السجين فتَى لا يُؤبَهُ له، وهو اليوم يدعوه إليه لِمَا ظهر من فضله، وعرف من علمه وخَبره، ولكنَّ ها هي ذي أمورٌ ظهرت لديه كانت خافية، واتضَحت أشياء كانت غامضة.

فأحضر النسوةَ بين يديه، وسألهنَّ: ما خَطبُكُنّ إذ رَاوَدْتُـنَّ يوسفَ عن نفسه؟ فما وجد الإنكارُ سبيلاً إلى قلوبهنْ، وما استطاع الكَذبُ أن يسبق إلى ألسنتهنَّ، بل صَرَّحْن بمَحْضِ[1] الحقِّ؛ فقلن: حاش لله! ما علمنا عليه من سوء وما خبرْنا فيه إلا فَتى عَفِيفاً كريماً، نزيهاً أميناً، غير مُتّهم في رأي، ولا ظَنِين[2] في عِفّة.

وقالت امرأة العزيز ـ وقد نالت منها الأيامُ والسنون ـ: الآن حَصْحَص[3] الحق، أنا رَاوَدتُه عن نفسه، وجَـذَبته للغرام من ضَبْعه[4]، فقد كان فتى وسيماً جميلاً وضيئاً، وقد كان منِّي قريباً دَانياً، وشخصهُ أمام عيني أبداً مائلاً، فعلقَه قلبي، ولم أستطع له دَفعاً، فدعوتُـهُ فتأَبَّى، وطلبته فامتنع، وكان لربه حافظاً، ولزوجي وفياً.

وإني أخبركم الآن أنه أعفُّ مَنْ رأيتُ نفساً، وأزكى من شهدْتُ قلباً، وأنه احتمل ما احتمل مِنْ آلام السجن بريئاً مظلوماً.

أنا قذفتُ به إلى السجن، وأنا ألقيْتُ به في هذا العذاب؛ ذلك الذي أعترف به الآن في وَضَح النهار، وضوء الشمس، بين سَمْع الملك وبَصَره، وبين حاشيته وبِطَانته، ليَعلم يوسف ـ وهو الآن في سجنه ـ أني لم أصِمه[5] بعيب، أو أرْمِه بِرَيب، من يوم سجنه إلى هذه الساعة التي يُـفصل فيها في أمره.

---

(١) المحض: كل شيء خَلَص حتى لا يشوبه شيء يخالطه.
(٢) الظنين: المتهم.
(٣) حصحص: وضح.
(٤) الضَّبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها.
(٥) وصم: عاب.

لقد صرَّحت لهؤلاء النسوة من قبل بأني راودتُه عن نفسه فاستعصم، والآن أعترفُ بأني دعوته لنفسي فأبى، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾[١].

يوسف عزيز مصر

جاءت شهادةُ امرأة العزيز مُبَرِئةً ليوسف من الذنوب، مُنَزّهَة له عن الأغراض والعيوب، وظاهَرَ هذه الشهادةَ ما رواه الساقي من سيرته في السجن، وما شهده عليه من صَبْرٍ يُجَمِّله الحلم، وعلمٍ يزيّنه التواضع، وما خبَره عنه الملك من حُسْن التأويل، وإحكام التدبير، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه، فأبى إلا أن يخرج بريئاً.

هاتيك الأخلاقُ الكَريمة، والشِّيمُ الحميدة، أثارت عند الملك رغبةً صادقةً في أن يُقَرِّبه إليه، ليكون في حاشيته، زعيماً في بِطَانته، والملك سوقٌ يُجلب إليه ما نَفق عنده.

وَمَثَّلَ بين يديه، وحادَثه، فألفاه حصيفاً أرِيباً، وعاقلاً رشيداً، طابق فيه المخبرُ الخَبَر، والسمع البصر.

قال: يا يوسف، إن ما تجمَّلتَ به من هذا الخلق الكَريم، وما خلّفته وراءك من ذكر عطرٍ، وماض زاهر، وما نطقت به حِلم راجح، وعقل حصيف، كلُّ ذلك رفع عندي مقدارَك، وأعلى مقامَك، وإنك منذ اليوم أمينٌ على هذه الدولة تعمل لخيرها، وتقوم على إصلاحها، مكِين[٢] فيما تصنع، مفوّض فيما تريد.

ولكنّ يوسف كان يعلمُ أنّ الأمة مقبلة على أيام يُسْرٍ وأيام بلاء، وأن النيل سيمدّهم بالماء، وينفحهم بالخير أعواماً، ثم يكفّ عنهم الرّفد[٣]، ويُخلف عنهم الوَعْد أعواماً، وأنه لا بُدَّ لمَنْ يَلي أمُورَهم ويدبِّر شؤونهم أن يكون بيده زمام المال، وعنده مفاتيحُ الخزائن؛ إذ المال عَصَبُ الأمة وَقوَامها، ولُبُّهَا وَمُصَاصها[٤]؛ فأراد أن يمتلك الزّمام الذي يستطيعُ أن يقودَ به الأمّة إلى خيرها، وأن يُمْسِكَ بالدفّة التي يستطيع أنْ يسيّر بها سفينتها. فقال للملك: إن أردت أن أكُونَ مسؤولاً عن هذه الأمّة، محاسباً عن تدبير

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٢) مكين: متمكن مقتدر ذو منزلة عند السلطان.
(٣) الرفد: العطاء.
(٤) المُصَاص: خالص كل شيء.

شؤونها؛ فاجعلني أميناً على خزائنها، ووزيراً لأموالها، وستجدُ الأمّةُ إن شاء الله ما ترْجُو من صلاح الأعمال، وَاطّرَاد الأحوال، في العسر واليسر، والرَّخاء والبلاء.

* * *

ومكَّنَ الله ليوسف في الأرض؛ فأضحى بين عشيَّةٍ وضحاها وزيراً مُطْلَق اليَد، مسموعَ الكلمة، نَافِذَ السلطان، وحضرتُه مَطلع الجود، وَمَهْوَى الوفود، وقد كان بالأمس سجيناً أسيراً، وَمِنْ قبل غلاماً يُبَاع وَيُشْرَى، وَيُسْلَب وَيُعْطى، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وَلِيَ يوسف الأمر في مِصْر سَبْعَ سنوات، جاد فيه النِّيلُ وأغلّت الأرض، فأسهل عَيْشُهم وامتدّ خيرُهم، وتفيَّئوا في ظلال الراحة والنعيم دهراً.

وكان يوسفُ نِعْمَ الحاكمُ اليَقِظ، والمولى الفَطن الأريب؛ بَني الأهْرَاء، وأعدّ المخازن، وملأها بالغلاّت الوافرة، والخيرات الكَثيرة، حتى إذا ما أقبلت السَّبع الشِّداد استقبلهاالقومُ آمنين، فلم تغيّر لهم حالاً، ولم تَنلْ منهم شيئاً، ولم تَدُق لهم عَظْماً، ولم تأكل منهم لحماً.

وامتد القَحْطُ إلى ما جاورَ مِصر من البلدان، وَمَسَّ ما حولها من الأقطار، حتى وصل إلى كنْعَان[1]، حيث يُقيم نبيّ الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

وسطع ذكرُ يوسف في مصر، وامتد نورُه إلى الأصقاع؛ وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً، يحمل بين جَنْبَيه نفساً كريمة؛ فقد أعدَّ عدَّته للجوع والقَحْط، والسَّنة والجدْب، فهو يوزِّعُ الحنطة بين الناس بميزان عادل، ويقضي حوائجهم بِقسْطاس[2] مستقيم، لا يفرِّق بين شَعْبٍ وشعب، ولا بين قُطْر وقطر.

قال يعقوب لبنيه: «يا بنيَّ؛ إن الجدبَ عَمَّنا، والقحطَ يكادُ يأتي علينا، فَهَلُمَّ شُدُّوا ركائبكم، واعملوا في السير نياقكم، وأقصدوا هذا العزيز الذي حملت إلينا الركبان أخباره، وتناقل الناسُ أحاديثه، وطبَّق اسمُهُ السهلَ والجبل والبَدْو والحضر؛ ولكن اتركوا

(١) كنعان: منطقة من أرض الشام.
(٢) القسطاس: أضبط الموازين وأقومها.

أخاكم بنيامين، أتعزَّى ببقائه عن فرَاقكم وأسكُن إليه حتى يعودَ جَمْعكم، ويلتئم شملُكم، والله كالِئُكم وراعيكم، وهاديكم ومبصِّركم».

* * *

واستأذن الحاجبُ على يوسف، فقال: إنَّ بالباب عشرة رجال تـتشابَهُ معارِفهم، ويلتمعُ نورُ الصلاحِ في وجوههم، وكأنهم غُرَباء عن هذه الديار، أو ضيوف على هذه الأقطار، وعرفتُ هذا من لُغاهم[1] ولهجتهم، وحَيرتهم وتردُّدِهم، وإنهم اليومَ ببابك، يستأذِنون في الدخول عليك، والمثُول بين يديك.

وأذِنَ لهم يوسف، ودخلوا عليه، فإذا هم إخوتُه وبنو أبيه، لم تغيِّر ملامِحَهم السنون، ولم تخفِ معالمهم الأيام، هم إخوته الذين تآمَرُوا على قتله، وتظاهروا على إيذ ئه، وهم الذين فرَّقوا بينه وبين أبيه وأذاقوه بعده جَفناً مؤرَقاً، وكَبداً مجروحة؛ وها هم أولاء يلقاهم اليوم في حضرته من غير سابق تدبير؛ بل بإحكام من اللطيف الخبير.

وقـد يجمـعُ الله الشَّتِيتَيـن بعـدمـا يَظُنَّـان كـلَّ الظـنِّ أنْ لا تـلاَقيـا

عَرَفهم وما عرفوه، وتبيَّنهم وأنكروه، وأين يوسف الذي خلَّفوهُ في الجبِّ؛ ولا يدرون أغْتالَته شَعُوب[2]، أم أكلهُ سَبُعٌ، أم بيع في سوق الرَّقيق، مِنْ هذا المليك المتوَّج النافذ السلطان، ذي الحَشم والأعوان؟!

ولكن يوسف كان حازِماً حكيماً، وَزَكِناً أريباً، رَزِين الحصاة. بَعيد الأناة، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه، والإفصاح عن أمره، بل حاول أن يَصِلَ إلى ما في نفوسهم، ويعرفَ مكامِنَ أسرارهم، وما خفي عليه من أخبارهم، واحتجب من أحوالهم، بأسلوب الحكيم، ومنطق الحاذِق الحصيف.

آواهم، وأكرمَ وِفَادَتهم، وأحسن ضيافتهم، ثم دعاهم يوماً إلى حضرته، وقال لهم: لقد أكرمتُكم، ومن حقي أن أسْألكم، وَأتَعَرّف أحوالكم فمن أنتم؟! وما شأنُكم؟! إني لأُنكِر عَدَدَكُم! وقد بدأتُ أشكُّ في أمركم، وأخشى أن تكُونوا عُيوناً علينا من مَلِيكِكِم!! فهل

(١) لغاهم: لغاتهم.
(٢) شَعُوب: علم على المنية.

لواحدٍ منكم أن يُفْضي إليَّ بحقيقة حالكُم، فلعله يمزِّقُ قِنَاع الشكِّ، ويبدِّد سحائبَ الريب؟!

قالوا: أيها العزيز، نحن اثنا عشر أخاً، سُلالة نبيّ كريم، ورسول عظيم، عشرة منهم هم رُسُله الآن بين يديك، وآمالهم منتهيةٌ إليك، وأما الحادي عشر فقد خلّفناه عند أبيه يقومُ على أمره، ويسهَرُ على رعايته. وأما الثاني عشر فقد فقدْناهُ، ولا ندري أختاره الله لجواره، أم هو يضربُ في الأرض الواسعة سهلِها وحَزْنها[١]، وغورها ونجدْها! ذلك هو أمْرُنا ظاهره وباطنه، جملته وتفصيله.

قال يوسف: قد يكُون حقًّا ما تقولون، ولكن لا وَزْنَ لقول لم يُعَزَّز ببينة أو يدعَّم بشاهد، فأقيموا عندي البيِّنة أو أتوا بالشاهد، حتى أطمئنَّ لحقيقة حالكُم، وأسكُنُ لصحَّة أقوالكُم.

قالوا: أيها العزيز، إنّا في غُربة عن بلادنا، وَعُزْلة عن أصدقائنا وأهلينا، وإنّكَ تكلفنا مُحَالاً أن نأتي لك هنا بمن يعرفنا، أو يشهد بصِحة أقوالنا، ولكن التمس لنا غيرَ هذا المخرج، وشيئاً غير هذه السبيل.

قال: إني سأجهزّكم بجهازكم، وَأوقرُ[٢] بالمِيرَة[٣] ركائبكم، على أن تعودُوا ومعكُم أخوكم الذي خلّفتموه عند أبيكم، ليكُون شهيداً عليكُم، مُصَدِّقاً لأقوالكُم، وسأُضاعفُ إكرامكُم، وأزيدكم حِمْلَ بعير في غلاتكُم، هذا هو شرطي، وذلك هو عهدي... فإن لم تأتوني به فلا كَيْلَ لكُم عندي ولا تَقْرَبون.

قالوا: أيها العزيز، ما نظنُّ أنَّ أبانا يأذنُ بسفره، أو يصبر على فراقه، ولكِننا سَنراودُهُ عنه ونتلطَّف إليه، وإنا لفاعلون.

وأمر غلمانه أنْ يُوفوا لهم الكَيْل، وأن يَدُسُّوا لهم في رحالهم البضاعة التي حَملوها، والفضة التي جاءوا يبتاعون بها، ليكُونَ ذلك أدْعَى لرجوعهم، وأمكَنْ لعودتهم.

* * *

(١) الحَزن من الأرض: ما غلظ.
(٢) أوقر: أثقل.
(٣) الميرة: الطعام يجمع للسفر وغيره.

وظَعَنُوا[١] عن مصر، وسارُوا إلى بلادهم، يحملون عن هذا العزيز أطيب الذِّكْرياتِ وأزكاها، وأعذبها وأحلاها، وتلقَّاهم يعقوب، وأخذ يستوضح أخبارَهم، ويستقصي أنباءهم.

قالوا: يا أبانا، إنا لقينا رجلاً عظيماً، وَوَزيراً كريماً، عرف فضلَنا، وأكْرَم وفادَتَنَا، وَوَفّي لنا الكَيْل، وأنزلَنا خيرَ منزل، ولكنه أخذ علينا عهداً وشرطاً ألا يكِيل لنا حتى نأتيَه بأخينا، يخبرُه بحقيقة حالنا، إذ أنه شكَّ في أمرنا، وداخَلَه الرَّيْبُ في رِحْلتنا، وغداً ستفرغُ الميرة، ونحتاج إلى غيرها، فأرسلُه معنا ليَكُونَ مُعِيناً لنا على الكَيْل، مساعداً لنا في الرِّفْدِ[٢].

قال يعقوب: لن آذَنَ لكُم بسفره، ولن أستريحَ لفراقه، وهل تروْنني آمنكم عليه كما أمنتكُم على أخيه من قبل؟! فاصرفوا عني كَيْدَكم، واكْفُوني شركم.

وفتَحُوا متاعَهم، وفتّشُوا رحالهم، فإذا بضاعتهم قد ردّت إليهم، وفضتهم قد عادت معهم، فخفوا إلى أبيهم مسرعين، وتحدثوا إليه مسرورين، وقالوا: يا أبانا، ما كذَبْنَاك حين زعمنا أننا لقيناً عزيزاً وافِرَ الفضل، جَمَّ المروءة، وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذنَ لنا بأخينا، فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا، شاهدةً على كرم العَزِيز ومروءته، فأرسِل معنا أخانا وسنَفْدِيه بأرواحنا ونرفُّ عليه بأجنحتنا.

* * *

ورأى يعقوب أنَّ حاجتهم إلى المِيرة ماسّة، ورغبتهم في الرحلة أكيدة، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن يُخْفِرُوه[٣]، وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يُحْضِروا له أخاهم فلن يخلفوه، فأذن لهم ببنيامين على أن يأخذَ عليهم عهداً أكيداً، وشرطاً وثيقاً: أن يأتوه به سليماً مُعافىً، إلا أن ينزِلَ بهم قدر لم يكُ في الْحُسبان، أو يفجأهم مكروه من الحدَثان، وأخذوا على أنفسهم الميثاق ووكَّدوا الأيمان وقالوا: والله على ما نقولُ وكِيل.

وساروا يخفضهم وَهْد، ويرفعهم نَجْد، حتى ألْقوْا عَصَاهم بساحة يوسف ورأى

---

(١) ظعنوا: ساروا وارتحلوا.

(٢) الرفد: العطاء والصلة.

(٣) خضر العهد: نقضه.

يوسف أخاهُ، فحنَا عليه ورَقّ له، ولكنه أخفى عواطِفَه، وستر ما في نفسه، ودعاهم إلى طعامه، وأجلسهم مَثْنى مثنى، وبقي بنيامين وحيداً، فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لجلس معي، فأجلسهُ معهُ على مائدته ثم قال: لينزل كلُّ اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثَاني له، فيكون معي.

فبات عنده، وقال له: أتحبُّ أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالك؟ قال: مَنْ يجِدُ أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدكَ يعقوب ولا راحيل؛ فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه، وقال: إني أنا أخوك الذي تَنْشده وتهتِفُ باسمه، وتتلهّفُ لرؤيته قد تقلّبت بي صُدوف، ورمتني صُرُوف[١]، ولقيت من كيد إخوتك ألواناً، وتحملتُ من غَدْرهم أحزاناً وأسقاماً، وابتُليت بعدهم بمِحْنة، وأصبت بفتنة، ولكني صبرتُ، وجاهدتُ حتى أبدلني الله ـ كما ترى ـ نعيماً ببؤس، وغنىً بفقر، وعِزاً بذُلّ، وكُثراً بقلّ؛ فاكْتُم عن إخوتك هذا الخبر، واحجُبْ عنهم هذا السر.

وقرَّتْ نفس بنيامين، وسكَنت أحزانُهُ وانْسَلَى هَمُّهُ، وارتدَّ إليه عازبُ[٢] حِلْمِه، وغَدَا يتقلَّبُ في نعيم أخيه وعزِّه، وينَعْم بكَرَمِه وعطفه.

* * *

وانقضت أيامُ الضيافة، وأجمع الرَّكْبُ الرحيل؛ فأراد يوسف أن يعمل لهم مكْراً، ويُحْدِث بهم أمراً، فأمر غلمانه أن يُجَهِّزوهم بجهازهم، وأن يدسوا السِّقاية[٣] في رَحْل بنيامين!

وبينما هم خارجون مُوَدَّعون إذا بمنادٍ جَهِير الصوت يناديهم: أيها الركبُ المُزمعُ سفَراً، المجمع رحيلاً، أنيخوا ركائبكم، وأنزلوا متاعكم، فما أنتم إلا سارقون!

فدهشوا وذُهِلوا، وأقبلوا على المنادي يقولون: ما هذا الْهُجْر[٤] الذي تنطق به، والفِرْيَة[٥] التي تَرْمِينا بها؟! وما خَطْبك؟! وما الذي فُقِدَ منك؟!

---

(١) صروف جمع صرف: وهو نوائب الدهر وحدثانه.
(٢) العازب: البعيد.
(٣) السقاية: الإناء تُسقى به، وجاء في تفسير الجلالين: هي صاع من ذهب مرصع بالجوهر.
(٤) الهُجر: الهذيان والقبيح من القول.
(٥) الفرية: الكذب.

قال: لقد فقدنا صُوَاع[١] الملك، وإنا لنشكُّ أن تكُونوا قد سرقتموه، وأخفيتموهُ، فارجعوا عما عَزَمْتم عليه، ولا بأس عليكم ولا حَرَج في أمركم، ومن جاء به منكم فله حِمْل بعير نافلة[٢]، وأنا زعيم[٣] لكم بهذا الشرط، كَفِيل بهذا الحمل.

قال إخوة يوسف: تالله لقد علمتمْ ما جِئْنَا لنُفسِدَ في الأرض، وما كُنا سارقين.

قال المنَادِي: إننا لا نتجنَّى عليكم، ولا ننصبُ الشِّرَاك لكم، ولكن ما حكمُكم لو وجدنا الصُّوَاع عندكم، مستقِرًّا في رِحَالكم؟!

قالوا: إن لنا شرعاً وديناً، وذمة وعهداً، فمن وجدتموه في رَحْله فخذوه أسيراً عندكم، عبداً لكم؛ ذلك هو شَرْعُنا، وهذا هو عَهْدُنا، وإنا على يقين من براءة ذِمَّتنا، وطهارة أعراقنا.

وطابت نفسُ يوسف لهذا العهد، واستروح لهذا الرأي، إذا ما كان شرعُ الملك في مصر يجيز له أن يحجز السارق، أو يتحكم فيه، ولكن الله مكَّن له فيما أراد عن طَوَاعيَة من إخوته واختيار.

فبدأ يُفَتِّش أوعيتَهم وعاءً وعاءً، حتى انتهى إلى وعاء بنيامين، فوجد السقايةَ مستقرة بين طَيَّاته، فاستخرجها منه، وأشهرها في وجوههم، فسهموا وَوَجَمُوا، وَذُهِلوا وَدُهِشوا، وأطرقوا حياءً وخجلاً.

قال لهم يوسف: عليكم بالشرط، والشرط أملك[٤]، فَدَعُوا هذا الذي وجدنا عنده الصُّواع، نتحكَّم فيه ونأخذ حقَّنا منه... قالوا: أيها العزيز، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً، قد ناهز العُمْرَين، وإنه ليتعلق بشَخْصه؛ وقد أخذ علينا عهداً أن نحافظ عليه ونردُّه إليه، وها نحن أولاء عشرة بين يديك، فخذ أحَدَنا مكانه إنا نراك من المحسنين. قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٥].

---

(١) الصواع: الصاع بمعنى المكيال.
(٢) النافلة: ما زاد على النصيب أو الحق.
(٣) زعيم: كفيل.
(٤) الشرط أملك: مستحق للتنفيذ.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٧٩.

ولما استحكم فيهم اليأسُ من قبول العزيز لشفاعتهم، ونفضُوا الأكُف من رَوَاج اقتراحهم؛ خلصوا إلى أنفسهم يتناجَوْن ويتشاورون؛ قال يهوذا: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكُم عَهْداً، واستحلفكُمْ أيماناً أن تأتوه بأخيكُمْ، وَأنْ تَبَرُّوا له بأيمانكُم؟! فما نقولُ له اليوم؟! وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ، وَحَنِثْنا في اليمين؟!

إن جُرْحَ يوسف في كبدِ أبيكم لم يندمل[١]، وإنَّ دموعَه من عينيه لم تنقطع، ونحن قد جَنَينا في الأولى، وها نحن أولاء نجني في الثانية: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ[٢] الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٣].

وذهب التسعةُ، وخلّفوا كبيرهمَ يهوذا، وتفقد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم، فكانّ طائراً طار من قلبه أو كأن قطعة تَفَصَّت[٤] عن كبده، ثم قال بصوت حزين: ما صنَعْتم بأخيكُم، وما فعلتم بأيمانكم؟ فقصُّوا عليه قصصهم، وحَدَّثوه بدخيلةِ أمرهم، فتولى عنهم؛ وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[٥].

لقد فقدت يوسف من قبل، واليوم أفقد بنيامين، وأفقد يهوذا ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾[٦].

* * *

اللقاء

وتساوَرَت يعقوبَ الهمومُ، وتشعَّبَتْهُ الأحزان، وأقضّتْ مضجعه الكُروب ولم يعد يَجد متنفّساً لهمِّه، أو سلوة من ألَمه، إلا ساعتين: ساعة يفزَع فيها إلى ربه يصلِّي

(١) اندمل الجرح: أخذ في البرء.
(٢) أي اسأل أصحاب العير، والعير ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٠ و٨١ و٨٢.
(٤) فَصَّ الشيء: فصله وانتزعه من غيره.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٣.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

ويسجد، ويتحنَّث[١] ويتهجَّد، مُسْتَلْهماً منه الصَّبْرَ، مستنجداً بالإيمان واليقين، وساعة يخلُص فيها إلى نفسه، ويَقْضِي حقَّ الذكْرى لولديه، ثم يستنجد بالدمع ويستروح[٢] بالبكاء، فتسحّ[٣] جفونُهُ وتفيض شؤونه فمن الصلاة والذكر كان يستلهمُ صبراً وإيماناً، ومن سَخِين الدَّمْع كان يلقى راحة واطمئناناً:

لم يُخلق الدمْعُ لامرىء عَبَثاً الله أدْرى بلَوْعَةِ الحزن

وما زال به واكفُ الدمع حتى ابيضّتْ عيناه، وضَوِي[٤] جسمه، وتضمَّر وجهه، وعاد كالخلال[٥] شُفُوفاً وضُموراً، حتى كان يومٌ أطلّ عليه أحَدُ أبنائه وهو في مَخْدَعِه، فوجده قد انفتل[٦] من صلاته، وانتهى من دعواته، ثم أخذ يولول ويتوجّع، ويبكي ولديه ويدمع، ويقول: يا أسفا على يوسف! بصوت وَجِيع، وهَمٍّ جميع! فهالهُ ما رَأى، ودعا إخوته ليَرَوْا معه كيف يتلوّى يعقوب في شقائه، وكيف يتألّم لبلائه.

وقال واحد منهم: أيْ أبانا، أنتَ رسولٌ عظيم، ونبيٌّ كريم، عليك يَهبط الوحي، ومنك نتلَّقى الهَدْي والإيمان، فما هذا الذي تَبْخَع[٧] به نَفْسَك، وتحشد له بناتِ هَمّك! ألم تكْفِ هذه الدموع التي ذَرَفتها، حتى هجمَتْ[٨] مُقْلَتاك، وابيضّت عَيْنَاك! ألم تكف هذه الزَّفرات التي أصعدتها حتى فَنِيَ جسمُك، ودَنفت[٩] نَفْسُك ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا[١٠] أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾[١١].

---

(١) تحنث: تعبد.
(٢) استروح: استراح ووجد الراحة.
(٣) سَحَّ الماء: صَبَّه صباً متتابعاً كثيراً.
(٤) ضوي: ضعف وهزل.
(٥) الخلال: العود الذي يتخلل به الأسنان.
(٦) انفتل: انصرف.
(٧) بخع نفسه: قتلها غماً.
(٨) هجمت العين: غارت.
(٩) دنف: اشتد مرضه.
(١٠) حرضاً: شرفاً على الهلاك لطول مرضك.
(١١) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

قال يعقوب: إنّ عذْلَكُم[١] يبعثُ شقائي، ويثُير كامِنَ دائي، وما دُون رؤية يوسف أن تسكن لَوْعتي، وترقأ[٢] دمعتي، ويوسف ـ وإن كان أكله الذئب في زَعْمكم، واخترمتْهُ[٣] شعُوب في رأيكم ـ حتى يتنفس الهواء، وتظِلُّه الخضراء[٤]، علمْتُه إحساساً كميناً في نفسي، وشعوراً ينبعثُ في قلبي، وفيضاً من الله على علمي، ولكنني لا أدري أي وَاد سَلك؟ وأي مذهب ذهب؟ ذلك الذي يُثير حُزْني، ويبعث أشجاني، وما أحْرَاكم ـ لو أردتم أن تنْضُوا عني شعار الهم، وتُزيحوا عني غَوَاشِيَ الأسى ـ أنْ تَضْرِبُوا في الأرض متحسسين عن يوسف وأخيه، معتصمين بالدأب والصبر، غير يائسين من رَوْح[٥] الله ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[٦].

وإخوةُ يوسف يُظَاهِرُون أقوالَ أبيهم في أعماق نفوسهم، ويُوَافِقُونه فيما بينهم وبين سرائرهم؛ فهم أَلْقَوْه في الجُبِّ، وهم خلفوه في الفَلاَة، وما يمنع أن يكون قد خرج من جُبِّه، ونجا من فَلاَته؟ ولكن أين هو؟ وأي مكان يشتمله؟ وأي وَادٍ يضمُّه؟ أرض الله وَسِيعة فأين يبحثون؟ وبلاده عريضة فأين يتحسسون؟ إنهم من يوسف على شَفَا اليَأس، وخيبة الرجاء، ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانَه، ويعلمون مَرَاحَه ومَغْدَاه؛ فليذهبوا إلى العزيز، وليتلطفوا عنده، ويتوسّلوا إليه، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم، فتخفّ بعضُ اللوعة، ويجد في لقائه بعض العزاء.

* * *

وَهَبطوا مصر مرةً ثالثة، وآمالُهم بين الخيبة والرجاء، ووقفوا بين يدي العزيز، ترهَقُهم ذِلّة، ويحيطهم انكسار: ذِلة العزيز، وانكسار الكريم.

قالوا: أيها العزيز، ها قد رجعتْنَا الأيامُ إليك، وأرادتنا أن نقفَ موقف الضراعة

---

(١) عذل: لام.
(٢) رقأ الدمع: سكن وجف وانقطع بعد جريانه.
(٣) اخترمته المنية: أخذته.
(٤) الخضراء: السماء.
(٥) روح الله: رحمته.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

والاستكانة بين يديك! وللأيام تقلباتٌ، وللدهر نكبات! وقد جئناك ببضاعة مُزْجاة[١]، إذ الحال رقيق، والعيش نكِد، والدهرُ غير مُوَات[٢]؛ فإن شئت تصدّقت بما يقيم الأوَد، ويُصْلح مُعْوجَّ العُود، وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا، فإنك بذلك تكون قد أرقأت له دمعاً، وخففَّت عن أبيه لواعجَ وأشجاناً!

وإذا كان الله قد بلغ بقصَّةِ يوسف ويعقوب أسمى ما يطمحُ إليه المثل الأعلى من الإيمان بالقضاء، والصبر على اللأواء[٣]، فقد آذن يوسف أنْ يُعْلِنَ لإخوته عن نفسه، ويكشف لهم عن حاله، وأنْ يصفح بكرمه عن زلتهم، ويسمو عن إساءتهم، ليضمَّ إلى الرواية فصلاً في الصفح والكرم، والعفو والغفران.

قال: ألا تذكرون يوماً في مَيْعة[٤] الحداثة وغَرارة الصِّبا، زين لكم الهوى ووسوَس الشيطان أن تَكِيدوا ليوسف وأخيه، فتُلْقُوا بيوسف في الجبِّ، وتصنعوا مع أخيه صنوف الكَيْدِ والإيذاء؟ ثم ألاَ تذكرون يوم أخذ وَاحِدُكم بيده القوية يوسف، وجذَبه وهو ضعيفٌ من ثيابه، وأنه قد توسل واستشفع، وبكى وتوجّع، فلم تقبلوا منه شفاعة، ولم تأخذكم فيه رحمة، بل ألقيتموه في الجبِّ وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار؟!

فتخالجهم الشكُّ في أمره، وداخلهم الرَّيْبُ في حقيقة حاله، إنه ليذكر أشياء وقعت، مَنْ أعلمه بها؟ ويحدّثُ عن تاريخ، مَنْ قَصَّه عليه؟ أيكُون بنيامين؟ ولكن بنيامين وكلّ الناس في أمر يوسف سواء، إنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره، ولا حادث إلقائه في الجبِّ! ورجعوا بعد الحَدْس والتخمين إلى يوسف يتوسَّمُونَ علاماتِه، ويتعرّفونَ شِيَاتِه، ويتذكرُون ما كانوا يعرفونه من ملامحه وشاراتِه، وما غابوا في هذا طويلاً حتى صاح واحدٌ منهم يقول: إنك لأنت يوسفُ!

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين نعم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[٥].

---

(١) مزجاة: مدفوعة يدفعها كل من يراها لرداءتها وكانت دراهم زيوفاً وغيرها.
(٢) موات: ملائم ومناسب.
(٣) اللأواء: ضيق المعيشة والشدة.
(٤) ميعة الحداثة: أولها.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

فامتقعت ألوانُهم، واضطربت مشاعِرُهم، وتلجلج الحديثُ بين أشداقهم، وتمنّوا لو انشق نَفَقٌ في الأرض فابتلعهم، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم، ويوسف كان أكرم نفساً من أنْ يُطِيل خوفَهم، وأوسَع صَدْراً من أن يكافئهم بزلّتهم؛ فهم ما برحُوا إخوتَه وبني أبيه، وإن تظاهروا على قَتْله، والفتك به وإن توافروا على الكيد له ولأخيه.

قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ (١) عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾(٢).

ونعودُ إلى يعقوب، وقد امْتُحن حِقْبَةً من الدهر فتحمل، وابْتُلِيَ بما تعجز عن حَمْله الجبالُ فتجمّل، وإنّ الله لهذا كتبه في صحيفة الأنبياء أولي العَزْم الأخيار، الطاهرين المحتسبين الأبرار، وأعدّ له الجنةَ جزاء وِفَاقاً، ومكرمة وثواباً، وأراد أن يكافئه في الدنيا، إطماعاً لمن يصبر مِنْ خَلْقه، وعزاء لمن يُبْتلى من عباده.

ذهب إلى مُصَلاه يوماً، فصلّى وذكر الله، ثم بكى ما شاء الله أن يبكي، وفجأة هدأت ضلوعُه، وجفت دموعُه، ودخل رُوْحٌ(٣) على قلبه، ما هذا الشعور الغريب والإحساس الوافد؟ إنه الآن ليشعر بانشراحٍ في أعماق نفسه، وابتهاج في قرارة وِجْدَانه، ونشوة نبتت في حنايا ضلوعه، إن هذا الشعور الذي يغمره، والفيض الذي يَشْمَلُه، ليُشْبِهُ ما كان في صدر أيامه الماضية، وعهوده الذاهبة، حينما كان يخطِر يوسف بين يديه، ويرى ابتسامة الحياة على شفتيه!

أحسَّ هذا يعقوب؛ فصاح بملء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾(٤) انعكس هذا الرِّيح هزّةً في أعطافي، وتغريداً في خواطري، ورَوْحاً ورَيْحَاناً في قلبي.

وما كان يعقوب خاطئاً في وهمه، ولا بعيداً في استرواحه، فقد فصَلت العير عن مصر تحمِل القميص، قميصَ يوسف الذي يحمل البُشْرَى، ويَرُدّ على يعقوب نعمة الصبرِ والحياة.

---

(١) التثريب: العتب.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٣) الرَّوح: الراحة.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٤.

وقطعت العَيرُ طريقها، وجاء البشير، فألقى القميصَ على يعقوب، فإذا بَصَرُه قد عاد، ورشْده قد ثاب[١]، وقَصُّوا عليه قصتهم، وحدَّثوه بما كان من أمرهم، ثم طلبوا إليه المغفرة والرضوان.

قال يعقوب: لستُ أمْلِكُ من أمركم شيئاً، أو أستطيعُ لكم من عذاب الله دَفْعاً، ولكني أستغفر لكم ربي وهو الغفور الرحيم، زُمُّوا[٢] إبلكم، وأجْمِعوا إرادتكم، وهَيِّئا بنا إلى ساحة العزيز.

ورأى يوسف أبَـوَيْهِ في ساحته، وحولهما أحدَ عشر من إخوته، والجميعُ يسجدون له معظّمين، ويقفون بين يديه خاشعين؛ فرفع يديه إلى السماء ـ شاكراً أنْعُمَه، ذاكراً فضله ـ وهو يقول: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[٣].

---

(١) ثاب: رجع.
(٢) زَمَّ البعير: جعل له زمام، أي جهزها للسفر.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.